مجلّة
اللّغة العربيّة وآدابها
رقم الإيداع القانوني: 2013-8004 ISSN: ر.د.م.د: 2352-9830

جمالية المفارقة وقيمتها الأسلوبية في القرآن الكريم "الأسلوب الحكيم أنموذجا"

The Paradoxical Paradox in the Holy Quran "The Wise Method is a Model"

أ/ زواري أحمد علي

Zouari ahmed ali

جامعة-حمّه لخضر. الوادي

تاريخ الإرسال : 2018 /02/15 **تاريخ القبول: 22/ 12/ 2018**

مُلخّص البحث

يتعلق موضوعنا هذا بظاهرة المفارقة التي تعد ظاهرة مهمة من الظواهر الأسلوبية ، وقد درستها في القرآن الكريم ، وركزت على أسلوب من أساليبه البارزة ، لأني رأيتها متمثلة فيه بجلاء ، وهذا الأسلوب هو : "الأسلوب الحكيم" وذلك من خلال الآيات التي جاء فيها هذا النوع من الأسلوب، وقد تعرضت إلى تعريف الأسلوب الحكيم لغة واصطلاحا وبينت نوعيه ثم تطرقة لبيان قيمة الأسلوبية ، وبعدها انتقلت لمفهوم المفارقة وبينت أنواعها ووضحت قيمتها الجمالية .

الكلمات المفتاحية:

المفارقة؛ الأسلوب الحكيم، القرآن الكريم؛ القيمة الأسلوبية.

Abstract

our topic is about the phenomenon of irony, which is an important phenomenon of stylistic field . l have studied it in the Quran , which focuses on the wise style, because I've seen its representation clearly through the verses in which this type used, l have presented definition of the wise style literally and idiomatically and l showed types and methods with referring to a statement stylistic value, and then l moved to the concept of irony with its types then their value.

key words:

The Paradox; The Wise Method, The Holy Quran; Stylistic Value.

المقدّمة:

لقد انفرد القرآن الكريم بتميز الأسلوب من خلال نظمه المعجز، وقد تعددت فيه أساليب الخطاب ، وتنوعت فيه مباحث البلاغة واللغة ، ما جعل الاهتمام به كبيرا لدراسة تلك الأساليب ومعرفة تلك المباحث وما تحتوي عليه من أسرار ودرر وجمالية في الدرس اللغوي العربي ، وهذا ما رغبنا في كتابة هذا المقال من خلال البحث في ظاهرة المفارقة من خلال القرآن الكريم ، ولكن في فن واحد من فنونه البلاغية ، وهو ما يسمى في علم البديع بالأسلوب الحكيم ، فصغنا العنوان بـ : "جمالية المفارقة في القرآن الكريم الأسلوب الحكيم أنموذجا" وهنا تبرز إشكالية هذا المقال في بيان القيمة الجمالية لظاهرة المفارقة في هذا الفن البديعي من خلال آياته في القرآن الكريم ، والذي سوف نتعرض لها في النقاط التالية :

- تعريف الأسلوب الحكيم.
- القيمة الأسلوبية لهذا الأسلوب.
- مفهوم المفارقة.
- أنواعها وقيمتها الجمالية .

ونبدأ في بيان العنصر الأول والمتمثل في:

تعريف الأسلوب الحكيم

هو ضرب من ضروب البلاغة العربية، تعرض له الأولون في علم المعاني ضمن مواضيع خروج الكلام لا على مقتضى الظاهر، ثم أصبح نوعا من أنواع المحسنات المعنوية في علم البديع، وقد كانت بداياته حين أشار له أبو عثمان الجاحظ (255 هـ) في كتابه "البيان والتبيين" ، وذلك عند حديثه عن "اللغز في الجواب" ، وأول من خصه بالحديث وقعد له ، وحدد مصطلحه بوضوح أبو يعقوب السكاكي (626 هـ) في كتابه "مفتاح العلوم" ، فسماه "الأسلوب الحكيم"

والأسلوب الحكيم – كما نرى - مركب لغوي من كلمتين هما : (الأسلوب والحكيم) ، وعندما نتصفح معاجم اللغة نجد أن المفهوم اللغوي للأسلوب يدور حول معان منها : الامتداد، والاستقامة، الطريق، الفن والمذهب، وكلها تشترك في معنى واحد متقارب يشكل معنى الأسلوب ، وكذلك مع لفظ الحكيم التي تدور معانيه حول : المنع ، والإتقان ، والإصابة ، وكلها توصيف لمعنى الحكيم . لذا نجد أبا البقاء يعرفه بقوله : «أسلوب الحكيم ، هو لغة : كل كلام محكم»[1].

وأما من حيث الاصطلاح فقد عرفه السكاكي بقول : «وهو تلقي المخاطَب بغير ما يترقب ، أو السائل بغير ما يتطلب»[2].

فمن خلال هذا التعريف تبيّن لنا أنه على نوعين ، وهذا ما ذهب إليه البلاغيون جميعا في حديثهم عن هذا الفن البلاغي ، وهما :

1) . تلقي المخاطَب بغير ما يترقب :

وهو مجيء الخطاب دون سؤال وجواب ، حيث يُتلقى المخاطَب بغير ما يتوقع أو يترقب ، بحمل كلامه على غير ما يريد ويقصد، لغرض ما يقصده المخاطِب ، ومن أمثلة ذلك :

ومن أمثلته ما وقع بين الحجاج بن يوسف الثقفي والغضبان بن القبعثري[3] ؛ حيث: «كان الحجاج قد حبس الغضبان بن القبعثري، فدعا به يوماً وقال: زعموا أنه لم يكذب قط، وليكذبن اليوم، فقال له لمّا أتي به: سمنت يا غضبان، قال: القيد والرتعة، والخفض والدعة، وقلة التعتعة، ومن يك ضيف الأمير يسمن، قال: أتحبني يا غضبان؟ قال: أو فرقاً خيرٌ من حبين ، قال: لأحملنك على الأدهم، قال: مثل الأمير حمل على الأدهم والكميت والأشقر، قال: إنه حديد، قال: لأن يكون حديداً خير من أن يكون بليداً»[4] ، وفي كتب البلاغة : «مثل الأمير يحمل على الأدهم والأشهب»[5].

وتفسيره أن «الأدهم : والمراد به القيد، فرأى القبعثري أن الأدهم يصلح للقيد والفرس ، فحمل كلامه إلى الفرس ، وقال : مثل الأمير يحمل على الأدهم والأشهب فصرف الوعيد بالهوان إلى الوعد بالإحسان»[6].

فهو بهذا حمل كلام الحجاج على غير مراده وبغير ما يترقبه (وكأنه يقول للحجاج من طرف خفي: الأولى بمثلك وهو في هذا السلطان، وهذه الهيئة أن يهب الخيول الدهم لا أن يقيد ويعذب، فإن الانتقام خلق الضعفاء، أما العطاء فهو خلق ذوي السلطان .. قال له الحجاج: إنه الحديد أي أنا أقصد بالأدهم القيد الحديد، فقال له ابن القبعثري: لأن يكون حديدًا خير من أن يكون بليدا، أي: لأن يكون الفرس ذا حدة وقوة، ونشاط خير من أن يكون بليدا فاترًا)[7] ، فحمل كلامه مرة أخرى على معنى غير المعنى الذي يقصده.

2) . تلقي السائل بغير ما يتطلب :

وذلك بتنزيل سؤال السائل منزلة غيره، أي يعدل في الجواب عن السؤال ويجيب عن سؤال لم يسأله السائل ، تنبيها على أنه الأولى أو المهم له أن يسأل عن هذا بدل السؤال الذي طرحه ، أو يزيد في الجواب أو ينقص عمّا يتطلبه السائل ، لحكمة ما أو لغرض بلاغي يقتضيه المقام.

يقول الشاعر[8] :

جاءني ابني يوما وكنت أراه *** لي ريحانة ومصدر أنس

قال ما الروح؟ قلت إنك روحي*** قال ما النفس؟ قلت إنك نفسي

إن في هذين البيتين سؤالان «من الابن لا يمكن أن يدرك معنى الإجابة عنهما ، لو كانت مطابقة للسؤال ، وخروج الأب في إجابتيه كان موفقا ؛ لأنه أشعر الابن بمنزلته دون أن يضعه في معمعة الصراع المعنوي ، فلا يدرك المراد ، ودون أن يهمل إجابته ، وهذا من إجابة السائل بغير ما يطلب .. كما يمكن في الوقت نفسه أن يكون توجيها للابن ، لإشعاره بأن معرفته لمنزلته في نفس أبيه ، أوْلى وأهم من سؤاله عن حقيقة الروح أو النفس»[9].

فمن خلال نوعيه نعرف أن الأسلوب الحكيم بنية تركيبية كباقي البنى ، لكن تميزها صياغة الأسلوب ، كما أن السياق في هذه البنية يعتمد على المحاورة بين المخاطِب والمخاطَب أو بين السائل والمسؤول . فتبنى هذه البنية بعد ذلك على مخالفة مقتضى الظاهر (العدول أو ما يسمى بالانزياح) ، حيث يستعمل المخاطِب في هذه المخالفة البدائل (اللفظية والمعنوية) الواردة من غير تكلف والكفيلة بتحقيق الغرض من المخالفة ، وتكون متقاربة في الظاهر ، وتختلف في العمق، وبالتالي يكون الناتج عن المخالفة دلالتان : واحدة في البنية العميقة لا تظهر للوهلة الأولى تحدث بسبب التخالف بين مقصد المخاطِب والمخاطَب ، وأخرى سطحية ظاهرة تحدث بسبب الانزياح بالصياغة .

وهذا ما عرفه به عبد القادر عبد الجليل في كتابه "الأسلوبية وثلاثية الدوائر البلاغية" حيث يقول : «هو بنية تقوم على أسلوب صياغي يعتمد فيه السياق على المحاورة وتؤسس بنيتها على أساس مخالفة مقتضى الظاهر بواسطة بدائل البث التلقائي التي يعتمد المنشئ ذات الدرجات اللونية المتقاربة ، والمخالفة في هذه البنية تؤدي إلى ناتج دلالي يدور في منطقة العمق ، ويكمل دورته مارا بمنطقة السطح »[10] .

وبعد هذا التوضيح في تعريف الأسلوب الحكيم ، نحاول أن نبين قيمته الأسلوبية لتظهر لنا جماليته قبل أن ننتقل لدراسة جمالية المفارقة فيه .

ISSN: 2352-9830, EISSN: 2600-6898

القيمة الأسلوبية لهذا الأسلوب

إن القيمة الأسلوبية للأسلوب الحكيم – كما رأينا - تكمن في التخالف الحاصل بين قصد المتلقي وبين ما يريده الملقي ، بحمله لكلام المتلقي من الدلالة الظاهرة إلى أخرى عميقة مخالفة لقصده ومراده ، مراعيا الحال والموقف ، ليحدث بذلك مفاجأة تؤثر في المتلقي تؤدي إلى إثارته وشد انتباهه فتصرفه عن الدلالة الظاهرة التي يقصدها نحو الدلالة العميقة المقصودة التي يريدها الملقي .

كما أن تلقي السائل بغير ما يتطلب ؛ ينزاح بالصياغة من ظاهرها إلى ما هو أولى وأهم ، فيندفع السائل لمعرفة أسباب هذا الانزياح وأوجهه فتتكثف الدلالة في العمق ، فينطلق في عملية ذهنية للبحث عن المطلوب ليصل إلى مقصد المتكلم ، فيكسب الأسلوب بذلك قيمته الأسلوبية كما سنراه لاحقا .

هكذا نرى كيف تتجلى القيمة الأسلوبية للأسلوب الحكيم من حيث أنه يثير المتلقي ويوجه اهتمامه من البحث عن الجواب إلى التفكير في فحوى الجواب ، فيساعده ذلك على معرفة المطلوب منه ، ويرتقي به من مجرد السؤال إلى اكتشاف المعرفة وامتلاك مهارات التساؤل في البحث عن اللائق والأهم .

كما أن مما يبرز القيمة الأسلوبية للأسلوب الحكيم في القرآن الكريم أنه يعمل على تلقين المعرفة وإيقاظ الوعي وزيادة الفهم وتنشيط الفكر ، وسيظهر هذا جليا من خلال ما سنعرضه من أمثلته التي فيها إجابات تحمل شحنات تترك المتلقي يعيد النظر في تصوراته ومفاهيمه ومعتقداته وفق ما تلقاه في الجواب ، الذي فيه من أنواع المعارف والمفاهيم والإشارات المختلفة ما يقرر رؤية الإسلام لبعض تلك التصورات والمفاهيم السائدة في المجتمع ، كما هو الحال في رؤية حقيقة البرّ التي عدّلها القرآن حين التساؤل عن الأهلة : ﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾[11] ، كان الجواب بغير ما يتطلبون وبخلاف قصدهم ، بأن اللائق بكم أن تعلموا أنها مواقيت وأنتم بحاجة إليها في عباداتكم لا أنها تزيد أو تنقص . ثم لقنهم بعض المفاهيم والمعارف الغائبة عنهم وهو أن حقيقة البرّ تكمن في تقوى الله والخوف منه وليس الخوف من دخول البيوت من أبوابها بإتيانها من ظهورها أثناء الإحرام.

ومنها ما نراه يقرر حقيقة الإنسان وسرّ وجوده في الحياة وعلاقته بمن حوله ليفقه حقيقة الموت والحياة والبعث والجزاء ، كما في قوله .تعالى .: ﴿**أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ**﴾[12]. نرى بأنه أُنْزِل السائلُ المستنكر منزلة من يتطلب علما ، تنبيها على أن اللائق أن يسأل عمّا يزيد في إيمانه ، بدل أن يستحيل وقوع الحياة في الأموات . ثم أعطاه حقيقة الوجود من العدم قبل أن يكون عظاما قد رمت وبليت ، وذلك تقرير للبعث الذي هو أهون على الله من بداية الخلق.

ومنها ما نراه يقرر قضايا الإيمان مثل البعث والجزاء والروح والساعة والقيامة والجنة والنار والملائكة والرسل والرسالات ، وقضايا العبودية ، وما يتعلق بعموم عالَم الآخرة ، وبيان حقيقة العلم الإلهي ، كما في الآيات التالية : ﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً**﴾[13]. عدل في الجواب بخلاف ما يتطلبون لبيان خطئهم في السؤال عن وقت الساعة ، ثم وجَّهَهُم لما هو أهم وأولى من سؤالهم وهو الاستعداد لها ، لأنها تأتي فجأة وعلى حين غفلة .

﴿**وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ**﴾[14]. جاء الجواب بخلاف مرادهم وبغير ما يتطلبون بحمل سؤالهم على ظاهره ، بأنه لا يستطيع لنفسه ضرا ولا نفعا ، فكيف يتسبب في إتيان عذابكم الموعود حسبما تريدون؟ ، ثم استطرد في بيان أن الأجل مكتوب على كل أمّة .

﴿**وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا**﴾[15] . الجواب بخلاف مرادهم ، وعلى غير ما يتطلبون ، فقد سألوا عن الماهية ، فأجيبوا عن محدثها (وهو الله) وعلمه، تنبيها لهم على الأولى.

﴿**بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ وَخَسَفَ الْقَمَرُ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ كَلَّا لَا وَزَرَ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ**﴾[16]. عُدِل في الجواب بحمل كلامه على ظاهره كأنه جِدٌ لا الاستهزاء فيه ، وأجيب بغير ما يتطلب بذكر الأهوال بدل تعيين الوقت .

وغيرها من الآيات التي تبرز هذه الجوانب بطريقة الأسلوب الحكيم بما فيه تربية المخاطَبين وتزكيتهم وتعليمهم ما يهمهم ، وتسديد تصرفاتهم بالابتعاد عمّا لا شأن لهم به ، وأن ينتبهوا لما هو أهم وأليق بحالهم وبما هو أولى لهم .

كما نرى في تقرير هذه الحقائق أن هناك قيمة أسلوبية أخرى تنبع من الوضوح الذي يكتسي الألفاظ المستعملة من حيث الدقة في الدلالة ، والدقة في تحديد المقصود بما يتناسب ومكانتها ، فلا تحدث غرابة عند المتلقي رغم ما تحدثه من مفاجأة .

كما نراه يأخذ قيمته الأسلوبية من الزيادة في الإفادة التي يقدمها للمتلقين بما يتناسب معهم ، وبما هو لائق بهم ، وبما هو أولى بحالهم ، زيادة تخاطب العقل والوجدان تجعل المتلقي يعيد التفكير في المفهوم الذي يحمله أو السؤال الذي يطرحه من جراء ما أثاره فيه أسلوب الحكيم من أحاسيس ومشاعر وأخيلة وتصورات جديدة بعثت على انفعاله وتفاعله مع الواقع الجديد .

كما أن من خلال هذه المعاني المتعددة تتجلى القيمة الأسلوبية للأسلوب الحكيم التي تبين أن الهدف هو التأثير في المتلقي ليدرك المراد منه ليقيم التوازن بين ما يعتقد ويتصور وبين ما عرض عليه من تلك المفاهيم والمعارف التي لم يكن يترقبها ولا يتطلبها ، فيلجأ لاختيار ما هو مناسب لحاله وأولى لمسيرته بعد التحاكم لعقله وضبط مشاعره وتصويب إرادته بتفاعله مع الخطاب ، فتتشكل شخصيته الجديدة وتأهله للقيام بواجبه المطلوب ، وهكذا تظهر القيمة الأسلوبية من هذا الأسلوب وما يؤدي إليه من تعميق الفكرة في نفس المخاطَب أو السائل فيترسخ المفهوم لديه وتتضح الصورة عنده ، فما عليه إلا أن يتغير ويعيد النظر في طرحه.

وبعد كل هذا البيان لمكامن القيمة الأسلوبية للأسلوب الحكيم في القرآن الكريم ننتقل لدراسة ظاهرة المفارقة في الأسلوب الحكيم و بيان جماليتها ، وأول ما نبدأه هو تحديد مفهومها.

مفهوم المفارقة

المفارقة تعني التبيان والتضاد ؛ وهذا ما ذكرته المعاجم اللغوية في بيان معانيها اللغوية، جاء في لسان العرب تحت مادة "فرق" : «وفارَقَ الشيءَ مُفَارقةً وفِرَاقاً: بايَنَهُ»[17].

وجاء في معجم لغة الفقهاء : «المفارقة : بضم الميم وفتح الراء من فارقه: انفصل عنه وباينه»[18] . ويقترب هذا المعنى من الدلالات التي تفيدها لفظة المفارقة كمصطلح

حديث، وأسلوب فني يستخدم في النصوص الإبداعية كما سنبين في تعريف كل نوع من أنواعها عن قريب.

فهي أسلوب من أساليب التعبير عن المعنى بشكل مخالف للظاهر ، فيظهر التباين من خلال هذا التعبير، وهي في الأسلوب الحكيم -كما سنرى - ظاهرة قوية ، نظرا للسمات البارزة التي تميز الأسلوب الحكيم عن غيره من الأساليب الأخرى ، والتي منها مخالفة المتلقي والسائل والرد عليهما بخلاف مرادهم وبغير ما يترقبون .

كما أن المفارقة عدة أنواع قد تكون في اللفظ الواحد الذي يحمل دلالات عدة فتظهر بعض هذه الدلالات في ظاهر السياق بمعنى ، وهي تدل على معنى آخر مقصود مناقض للظاهر ، وقد تكون بين أشياء مختلفة في حقيقتها أو متقابلة في دلالتها ، بقصد بيان التباين أو التضاد أو التعارض ، أو الاختلاف أو التعاكس أو التناقض أو التقابل ، أو .. الحاصل بينها .

وهي من الإجراءات الأسلوبية الفاعلة والفعّالة في تجسيد القيمة الجمالية للأسلوب الحكيم، لما تنتجه من فارق دلالي بسبب الاختلاف الذي توقعه بين المعاني، فيدفع بالمتلقي إلى كدّ ذهنه واستثارة فكره للتأمل العميق في تلك المتناقضات، فهي عبارة عن وسيلة أسلوبية أو منبه أسلوبي يبرز المعاني ويجليها ويوقظ إحساس المتلقي بمضاعفة التأثير عليه فيشد انتباهه للوصول إلى المعنى المقصود - ويتجلى ذلك جليا من خلال القرآن الكريم - وبالتالي تكون المفارقة داعي من دواعي قبول المعنى الجديد المراد إيصاله للمخاطَب.

أنواعها وقيمتها الجمالية .

المفارقة عدة أنواع ، هي :

أ) . المفارقة اللفظية :

يقول محمد العبد : «هي شكل من أشكال القول يساق فيه معنى ما حين يقصد منه معنى آخر يخالف غالبا المعنى السطحي الظاهر»[19] . أي أن المفارقة تكون في كلمة تحمل معنى ما ، لكن تستخدم في سياق معين فيراد منها معنى آخر مضاد الذي هو المعنى الخفي في العمق لا الظاهر في السطح .

ومن أمثلة ذلك لفظ "ذوقوا" من قوله - تعالى - : ﴿**يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ**﴾[20].

السؤال كان عن تحديد زمن حصول يوم القيامة ، فعُدِل عن أن يجابوا بتعيين وقت ليوم القيامة ، فكان من مقتضى حالهم أن يُنذروا بما يقع لهم فيه ، حتى ينبهوا على التوقي من ذلك اليوم فجاب بلفظ "ذوقوا" المعروف أن الدلالة الظاهرة في الذوق تكون للجيد من الطعام وتكون أيضا للإكرام والتباهي بجودة المطعوم ، لثقة صاحب الطعام بطعامه ، (ولكنها في الاستخدام المفارقي الخاص وضعت مع ألفظ تتضاد "أو تتناقض" معها في الدلالة)[21] ، فالمعنى الخفي المضاد والمقصود هو ذوق العذاب (أي الفتنة) لا الطعام ، وذلك تحقيرا وأهانه لهم .

فهذه المفارقة تكمن قيمتها الأسلوبية بأنها تثير القارئ حين يحس بالمغايرة والتعاكس بين الدلالة الظاهرة والباطنة وبين الاختلاف الثنائي القائم بين المعنى والمبنى ، يضطره للكشف عن المقصود الخفي ، وهنا سر جماليتها .

ب) . مفارقة التقابل :

وتقوم على موقفين أو معنيين متضاربين أو متضادين تماما ، لكل موقف أو معنى منهما نظرة تناقض نظرة الموقف الثاني أو المعنى الثاني .

ومن المفارقات في هذا النوع ما جاء في قوله - تعالى - : ﴿**إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ**﴾[22] .

حمل استفهامهم على ظاهره تنبيها على أن اللائق بهم أن يسألوا عن حكمة ما أراد الله بتلك الأمثال ، فيكون قوله : ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾ جوابا لهم وردا عليهم وبيانا لحال المؤمنين.

ونذكر كلام السيوطي لبيان هذا النوع من المفارقة ؛ حيث يقول: «قابل بين (بعوضة فما فوقها) وبين (فأما الذين آمنوا) و (وأما الذين كفروا) وبين (يضل) و (يهدي) وبين (ينقضون) و (ميثاقه) وبين (يقطعون) و (أن يوصل) »[23] .

ومنه المفارقة بين "لا تستأخرون" و "لا تستقدمون" في قوله – تعالى - : ﴿**وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ**﴾[24]. وهو مفارقة تقابل بين معنيين مختلفين متضادين.

وتكمن القيمة الأسلوبية لهذا النوع من المفارقة بأنها (من الأدوات الأسلوبية التي تزيد البنية الدلالية للمفارقة عمقا وقوة وتأثيرا)[25] .

ج) . مفارقة المفهوم :

تقوم أساسا على التناقض الموجود بين تصرفات الإنسان وبين الشيء المطلوب واللائق به ، أو بين موقفين متضادين وما يجب أن يكون عليه الأمر .

من ذلك المفارقة بين فعلين أو سلوكين أو صفتين ، مثل "الاستعجال بالسيئة " و "الاستعجال بالحسنة" في قوله – تعالى - : ﴿**..قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ**﴾[26].

خاطبهم بغير ما يترقبون ، بأن اللائق بكم بدل استعجال العذاب أن تعجلوا التوبة ، لأنه إذا جاء لا يمهلكم حتى ترجعوا عن عنادكم . وتمثلت مفارقة المفهوم فيها أن المفارقة كانت بين سلوك الاستعجال باتخاذ السيئة ، وسلوك الاستعجال باتخاذ الحسنة .

وأيضا من أمثلة مفارقة المفهوم قوله - تعالى - : ﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾[27]. الجواب بغير ما يتطلبون وبخلاف قصدهم ، بأن اللائق بكم أن تعلموا أنها مواقيت وأنتم بحاجة إليها في عباداتكم لا أنها تزيد أو تنقص .

وتمثلت المفارقة بين مفهومين وتصرفين الأول "وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها" وهذا تصرف حسب مفهوم وتصور المشركين للبر بأنهم يأتون البيوت من ظهورها أثناء الإحرام ، وهذا مفارق ومضاد للثاني "ولكن البر من اتقى وأتوا البيوت من أبوابها" وهو التصرف السليم لمفهوم وتصور الإسلام للبر بأنه يتمثل في التقوى وليس الدخول من ظهور البيوت ، وهذا ما يجعل المفارقة من ظواهر الأسلوب الحكيم لأنه فيها تلقي السائل بغير ما يتطلب.

ومثل قوله – تعالى - : ﴿**وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ**﴾[28] .

ISSN: 2352-9830, EISSN: 2600-6898

حُمِل استفهامهم على ظاهره وعُدِل به عن مقصدهم ، فأثبت أن للسورة زيادة في إيمان بعض الناس وأكثرَ من الزيادة ، وهو حصول الْبَشَرِ لهم . وارتُقِيَ في الجواب بأنها زائدة في كفرهم.

وهنا المفارقة بين مفهومين الأول يقول أن السورة لا تزيد في الإيمان ، وهو تصور المشركين ويستحيل ذلك ، والثاني ما بينه الله تعالى وهو الحقيقة الأكيدة ، بأنها تزيد في إيمان المؤمنين وتزيد أيضا في كفر الكافرين ، وهو مضاد للأول ومفارق له.

وأيضا قوله - تعالى - : ﴿**فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ**﴾[29] . جاء الرد بغير ما يترقبون ، بأسلوب الاستفهام إنكارا لتظاهرهم بالطمع في الجنة بحمل استهزائهم على خلاف مرادهم.

يقول محمد العبد: «وقد جاءت هذه الآيات في مقام المقابلة بين هؤلاء الذين أحسنوا العمل والعبادة من المؤمنين، فأكرمهم الله بالجنة،وأولئك الكفار الذين يطمعون في الجنة، ولم يعملوا لها!. ويمكننا أن نعد ذلك أيضا من التضاد أو التناقض الظاهر ، وهو وجه من وجوه المفارقة ، وهو عبارة عن قضية تبدو باطلة ولدرجة السخف ، ولكنها بعد ذلك تجتهد أن يصير لها معنى معقول أو منطقي ، وعادة ما يكون هذا المعنى مفاجئا أو غير متوقع»[30] .

ويكمن الجمال والقيمة الأسلوبية لهذا النوع من المفارقة في توضيح المفاهيم وبيان سخافة التافه منها وإبراز الرفيع اللائق ليكون أمام الأذهان في صورة حية مشرقة لا لبس فيها ولا غموض قصد التأثير في المتلقي وتغيير المفاهيم التي يحملها ويتصور أنها هي الحقيقة التي لا حقيقة بعدها.

د) . مفارقة المفاجأة :

تقوم هذه المفارقة على مخالفة ما يتوقعه المرء في الموقف الذي يمرّ به فيفاجأ بحالة مغايرة تماما لما في ذهنه ولما يتوقعه ، والأصل في الأسلوب الحكيم أنه ينبني على إحداث هذه المفارقة لمفاجأة المتلقي ، وهي في القرآن ظاهرة وبارزة .

مثال ذلك قوله - تعالى - : ﴿**وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ**﴾[31] . طلبوا نزول الآيات ، فأجيبوا بخلاف مرادهم ، ولم تنزل الآيات ، بأن الغيب مختص به تعالى ، وانتظروا ما يوجبه اقتراحكم إني معكم من المنتظرين إياه.

ومفارقة المفاجأة هنا أنه أعرض عن الجواب وفاجأهم بانتظار العذاب الذي هو أجدر بهم بأن ينتظروه بدل الجواب ، وهذه المفاجأة تقرع سمعهم لتحدث نوعا من الرعب الذي يثير حفيظتهم ويجعلهم يتراجعون عن غيهم وتهكمهم وقد جاء بالفعل "انتظروا"، لأنه يدل على الهلاك فجأة ، ويوحي بشدة الأخذ بسرعة بين نزول الآية ومهلكهم .

ومثل ذلك في قوله - تعالى - : ﴿**وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ**﴾[32] .

يقول ابن عاشور : «أسلوب الكلام خارجا على أسلوب الحكيم إعراضا عن جوابهم لأنهم لم يقصدوا حقيقة الاستفهام ، فأجيبوا بأن ما أعد لهم من العذاب هو الأجدر بأن ينتظروه»[33] .

وهنا أيضا مفارقة المفاجأة ؛ حيث أعرض عن إجابتهم وتلقاهم بالمفاجأة المنتظرة التي لا يتوقعونها ولا يحسبون لها حسابها ، وهي الصيحة المذهلة والمدهشة التي تأخذهم فجأة فتهلكهم ، ولا تمهلهم بوصية ولا تسمح لهم بفرصة للرجوع إلى أهلهم ، ﴿**فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ**﴾[34] .

فالقيمة الأسلوبية للمفارقة تحدث من جراء المفاجأة والدهشة التي يحدثها الخطاب بخروجه عن المألوف ، وتخييبه لأفق المتلقي ، بما يُبْرِزُه من دلالات مكثفة في الألفاظ والمعاني وأضدادها ، فتقرع سمع المخاطَب وتتلقاه بغير ما يتوقع ، فتأثر فيه وتثير انفعاله.

الخاتمة

وفي الأخير يمكن القول بأن المفارقة ظاهرة من الظواهر الأسلوبية المهمة ، وخاصة في النص القرآني المعجز ، وقد تمثلت هذه الظاهرة جلية في الأسلوب الحكيم من خلال الآيات التي جاء فيها هذا النوع من الأسلوب، وذلك بسبب الاختلاف الحاصل بين قصد المخاطِب والمخاطَب، فينتج عن ذلك تكثف الدلالة في العمق وتباينها عن الدلالة في السطح بسبب التغاير الحاصل بين طرفي المفارقة، ما يؤدي إلى إبراز القيمة الجمالية داخل النص القرآني من جراء هذا الأسلوب البديعي الذي يراد منه العدول عن الظاهر للتأثير في المتلقي وجلب انتباهه وتحريك ذهنه لما هو أولى به وأليق بحاله .

الهوامش:

ISSN: 2352-9830, EISSN: 2600-6898

1 - أيوب بن موسى الحسيني القريمي الكفوي، أبو البقاء الحنفي (ت : 1094هـ) الكليات ، أعده للطبع : عدنان درويش و محمد المصري ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط : 2 ، سنة 1419 هـ ، 1899 م، ص 111.

2 - يوسف بن أبي بكر السكاكي ، أبو يعقوب (ت : 626هـ) : مفتاح العلوم ، ضبط وتعليق : نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت ، ط : 2 ، 1407 هـ - 1987 م .ص: 327.

3 - الحجاج الثقفي من ولاة بني أمية المشهورين . والقبعثري: من رؤساء العرب وفصحائهم وكان من الخوارج.

4 - القاسم بن سلاّم بن عبد الله الهروي البغدادي (ت: 224هـ) : الأمثال ، تحقيق : عبد المجيد قطامش ، دار المأمون للتراث ، ط : 1، سنة : 1400 هـ - 1980 م ، ص: 56 . والحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري (ت : نحو 395هـ) : جمهرة الأمثال ، دار الفكر – بيروت ، 2/ 35.

5 - محمد بن علي السكاكي : مفتاح العلوم ، ص: 328 . جلال الدين القزويني ، المعروف بخطيب دمشق (ت: 739هـ) الإيضاح في علوم البلاغة ، تحقيق : محمد عبد المنعم خفاجي ، دار الجيل – بيروت، ط : 3 ، 94/2.

6 - انظر تقي الدين أبو بكر بن علي بن عبد الله الحموي الأزراري الملقب : ابن حجة الحموي (ت: 837هـ) : خزانة الأدب وغاية الأرب ، تحقيق : عصام شقيو ، دار ومكتبة الهلال-بيروت، سنة 2004 ، 1/ 258.

7 - انظر محمد أبو موسى: خصائص التراكيب دارسة تحليلية لمسائل علم المعاني ، مكتبة وهبة ، ط : 7 ، ص: 270.

8 - انظر علي الجارم و مصطفى أمين : البلاغة الواضحة ، ، دار المعارف، القاهرة ، سنة : 1999 م ، ص: 298.

9 - مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، المملكة العربية السعودية ، محمد بن علي الصامل ، مقال : "الأسلوب الحكيم دراسة بلاغية تحليلية" العدد 15 ، شعبان 1416هـ . ص : 63.

10 - عبد القادر عبد الجليل : الأسلوبية وثلاثية الدوائر البلاغية ، دار الصفاء ، عمان ، ط/1 ، سنة : 2002م ، ص : 560 .

11 - سورة البقرة:، الآية : 189.

12 - سورة يس ، الآيات : 77 – 79

13 - سورة الأعراف ، الآية : 187.

14 - سورة يونس ، الآيات : 48 – 49 .

15 - سورة الإسراء ، الآية : 85.

16 - سورة القيامة ، الآيات : 5 – 12.

17 - محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى (المتوفى: 711هـ) ، لسان العرب ، الناشر: دار صادر– بيروت ، الطبعة: الثالثة - 1414 هـ ، 10/ 300.

18 - محمد رواس قلعجي - حامد صادق قنيبي: معجم لغة الفقهاء، دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع ، الطبعة: الثانية، 1408 هـ - 1988 م ص: 445.

19 . محمد العبد: المفارقة القرآنية دراسة في بنية الدلالة، دار الفكر العربي ، ط/1 ، سنة : 1415هـ ، 1994م، ص 71.

20 - سورة الذاريات ، الآيات : 12 ، 14.

21 - انظر المرجع السابق : ص : 73 .

22 - سورة البقرة الآيات : 26 ، 27 .

23 - عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى : 911هـ): الإتقان في علوم القرآن ، المحقق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الطبعة : 1394هـ/ 1974 م ، 3/ 327.

24 - سورة سبأ ، الآيات : 29، 30

25 - محمد العبد: المفارقة القرآنية دراسة في بنية الدلالة، ص : 96 .

26 - سورة النمل ، الآيات : 45، 46.

27 - سورة البقرة الآية : 189.

28 - سورة التوبة ، الآيات : 124، 125

29 - سورة المعارج ، الآيات : 36 – 38.

30 - محمد العبد : المفارقة القرآنية دراسة في بنية الدلالة ، ص : 191.

31 - سورة يونس ، الآية : 20 .

32 - سورة يس ، الآيات : 48 ، 49 .

33 - محمد الطاهر بن الطاهر بن عاشور (ت : 1393هـ) : التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد» ، الدار التونسية للنشر - تونس ، سنة: 1984هـ ، 23/ 34.

34 - سورة يس ، الآية : 50 .

❊❊❊ ❊❊❊ ❊❊❊